**المحاضرة العاشرة-الأساس الإجرائي لتحليل الخطاب-ماستر2-تخصص:نقد حديث ومعاصر**

**عنوان المحاضرة:التحليل البنيوي للفضاء المكاني**

**أ**

**أولا/"التحليل البنيوي للفضاء المكاني "**

**1/الجهود التنظيرية/الإجرائية:**

لقد احتلت دراسة الفضاء ضمن مسارات الحركة النقدية الروائية حيزا معتبرا سواء من طرف الفلاسفة/الدارسين/النقاد وبخاصة عند البنيويين،معتبرين أنه لا أحداث ولا شخصيات أ ن تؤدي أدوارا سردية دون فضاء مكاني وزماني ومن هنا تأتي أهمية الزمن والمكان ليس كخلفية للأحداث فقط بل و كعنصر/مكون حكائي قائم بذاته إلى جانب المكونات المكونات السردية الأخرى المكونة للنص السردي،ولعل انصراف النقاد التقليديين عن دراسة لمكونات الخطاب السردي هو انشغالهم بدراسة المضامين الفكرية/الاجتماعية/السياسية للنص الروائي.

ضمن سياق الدرس الفلسفي للفضاء يمكن الإشارة لدراسة:"غاستون باشلار"-شعرية الفضاء-1957 وهي الدراسة الرائدة التي نبهت الدارسين/الباحثين/النقاد إلى أهمية دراسة المكان في الإبداعات السردية،فكان من بين النقاد العرب-غالب هلسا-الذي يعد من الأوائل الذين درسوا الفضاء المكاني و هذا ما تجلى في دراسته الموسومة-المكان في الرواية العربية-بحيث درس فيه التأثير المتبادل بين المكان والسكان وأظهر أ ن المكان ليس ساكنا بل هو متحرك/متغير وقابل للتحول بفعل مكون الزمن وعلى هذا الأساس فقد اعتمد تصنيف للمكان وقسمه إلى أربة أنواع هي:

**-1المكان المجازي**:وهو المكان الذي نجده في رواية الأحداث المتتالية،حيث نجد المكان ساحة للأحداث ومكملا لها وليس عنصرا مهما في الإبداع السردي،إنه مكان سلبي مستسلم يخضع لأفعال الشخصيات.

**-2المكان الهندسي:**وهو المكان الذي تعرضه الرواية بدقة وحياد من خلال أبعده الخارجية.

**-3المكان كتجربة**،معاشة داخل العمل السردي،بحيث أنه قادر على إثارة الذكريات المتعلقة بمختلف الأمكنة التي يستدعيها القاريء.

**-4المكان المعادي:**وهي مجموع الأمكنة المغلقة من قبيل السجن/المنفى/الفلاة/كما يدخل تحت السلطة الأبوية وهذا بخلاف الأماكن السابقة التي أشرنا إليها.

ولقد اعترض بعض الدارسين على التقسيمات من منطلق أن توظيف المكان في الأعمال الروائية يكون مجازيا،هذا بالإضافة أن لا يمكن نعت المكان بأنه هندسي وآخر معيش ذلك أن كل الأمكنة هندسية،كما أن المكان المعادي يظل بدوره فضاء .بالمقابل فإن المكان في الدرس النقدي الغربي وخاصة منه الفرنسي أخذ من كلمة-فضاء-بدلا من –موقع- وهو تعبير عن المكان المحدد لوقوع الأحداث،بالمكان"يمثل الخلفية التي تقع فيها أحداث الرواية،وبالمقابل فإن"الزمن"فإنه يتمثل في الأحداث نفسها،وإذا كان"الزمن"يرتبط بالإدراك النفسي فإن المكان يرتبط بالإدراك الحسي،ومن هنا فإذا كان الزمن يرتبط بالأفعال والأحداث،وأسلوب عرضها هو السرد،فإن أسلوب عرض/تقديم المكان هو الوصف.

وللأهمية النقدية السردية لمكون"المكان"في النص السردي،فقد درس-جورج بوليه-الفضاء الروائي لذاته،دون تحليل الروابط التي تجمع بينه وبين الأنساق الطبولوجية الأخرى باعتبار المكان ليس منعزلا عن باقي عناصر السرد،وإنما يتشابك في علاقات متعددة مع المكونات السردية الأخرى:الشخصيات/الأحداث/الرؤى....وفي السياق نفسه درس كذلك-رولان برينوف-تحليل مظاهر الوصف،والاهتمام بوظائف المكان في علاقته مع الشخصيات /الموقف/الزمن،كما أنه يمكن الإشارة إلى أهم دراسة كشفت عن دلالة-الفضاء-الروائي التي قام بها-يوري لوتمان-في كتابه الموسوم:بنية النص الروائي-1973حيث بنى دراسته على مجموعة من التقاطبات المكانية التي ظهرت على شكل ثنائيات ضدية نتجمع بين عناصر متعارضة وتعبر عن العلاقات والتوترات التي تحدث عند اتصال الراوي أو الشخصيات بأماكن الأحداث.وإذا كان-لوتمان- قد أقام نظرية متكاملة للتقاطبات المكانية منطلقا من فرضية أن الفضاء هو مجموعة من الأشياء المتجانسة التي تقوم بينها علاقات شبيهة بتلك العلاقات المكانية المعتادة،فإن-باشلار- قد درسه من خلال جدلية"الخارج/الداخل،وعارض بين البيت واللابيت،والقبو والعلية،وعليه فإن لغة العلاقات المكانية تصبح من الوسائل الأساسية للتعرف على على الواقع،فمفاهيم مثل:الأعلى/الأسفل،القريب/البعيد،المنفتح/المنغلق،المتصل/المنقطع....فهي كلها تصبح أدوات لبناء النماذج الثقافية دون أن تظهر عليها أية صفة مكانية.

وفي السياق نفسه يؤكد-لوتمان-أن النماذج الاجتماعية/الدينية/الأخلاقية/السياسية تتضمن،وبنسب متفاوتة،صفات مكانية تارة في شكل تقابل:السماء/الأرض،وتارة في شكل نوع من التراتبية الإاجتماعية/السياسية حين تعارض بين الطبقات:العليا/الدنيا،وتارة في صورة إطلاقية حين نقابل بين :اليمين/اليسار،...وكل هذه الصفات تنتظم في نماذج للعالم تطبعها صفات مكانية بارزة وتقدم نموذجا إيديولوجيا متكاملا خاصا بنمط ثقافي معطى.

وبالمقابل فقد تجاوز-لوتمان- العرض النظري لمفهوم التقاطب إلى الممارسة النقدية ،بحيث اعتمد في كثير من دراساته على ثنائية التقاطب:الأسفل/الأعلى،فربط الأول بـ-الاتساع-والثاني بـ-الضيق-ثم يدل بالأسفل على النزعة المادية،ويدل بالأعلى على النزعة الروحية،لينتهي بعد مجموعة من التقابلات إلى أن "الأعلى"هو مجال الحياة،وأن الأسفل هو مجال الموت،ولذلك فإن كل انتقال يبقى متجها إما إلى الأعلى أو إلى الأسفل وتنتظم الحركة على المحور العمودي الذي ينظم الفضاء الأخلاقي فالشر يوضع في الأسفل والخير يوجه نحو الأعلى.

وهكذا فقد أظهرت دراسات الفضاء من منظور التقاطب على كفاءة إجرائية ممتازة عند استثماره في تحليل النصوص السردية وذلك بفضل التوزيع الذي يجريه للأمكنة والفضاءات وفقا لوظائفها وصفاتها.

**2/وصف المكان/شعرية المكان:**

إن الاهتمام بدراسة المكان تعني محاولة وصف المكان باعتباره لا يمثل خلفية الأحداث فقط،بل والإطار الذي يحتويها،ليبقى المكان مكونا فعالا في جميع عناصر الحكي،بحيث يأخذ منها ويعطيها،فالشخصية-مثلا- التي تعيش في الريف يطبعها الريف بطابعه،فيظهر أثره في طباع السكان وسلوكهم،والشخصية التي تعيش في المد تطبعها المدن بطابعها،ويتجلى أثر ذلك في سلوكهم أيضا،وتبقى العلاقة جدلية بين تأثير المكان في السلوك وتأثير السلوك في المكان.

إن الاكتفاء بوصف المظهر الخارجي لمكان البيت،مهما كان هذا الوصف موضوعيا،لا يمكن أ ن يستوفي الدلالة كاملة فيه،من مظاهر الألفة، والحياة الداخلية التي تعيشها الشخصيات "فالبيت يبقى امتداد لها ووصفه هو وصف لها باعتبارها تعبيرا عن أصحابها"فكل حائط وكل قطعة أثاث غي البيت هي بديل للشخصية التي تسكن هذا البيت"كما أن للأشياء تاريخا مرتبطا بتاريخ الأشخاص وهذا ما يؤكد على تأثير الوجود الإنساني على الفضاء المكاني.لذلك يبقى وصف الأمكنة يشكل تقنية إنشائية تتناول وصف أشياء الواقع في مظهرها الحسي وهي نوع من التصوير الفوتوغرافي لما تراه العين عند الأدباء الواقعيين الذين استقصوا تفاصيل الأماكن والأشياء،ووصفها بدقة بخلاف روائيي التجديد الذين لم ينظروا إلى الأشياء على أنها حقيقة مستقلة عن الشخصية،وإنما نظروا إليها على أنها صدى الشخصية والأحداث ومن هذا الفرق بين الوصف الفوتوغرافي الذي يصور الأشياء من خلال إحساس المرء بها،وإذا كانت الرواية التقليدية قد جعلت المكان في المحل الثاني من اهتمامها ،فإن الرواية الجديدة قد أحلته محل الشخصية الروائية،واستعاضت عن وصف الشخصيات بالوصف الحيادي للمكان ،بل وجعلت الشخصية نفسها كي يؤدي دور الإيهام بالواقع حين يصور أماكن واقعية،كما نجد لدى"نجيب محفوظ"في ثلاثيته-بين القصرين/قصر الشوق/السكرية-.وإذا كان النقاد التقليديين يرون أن"الوصف"هو أسلوب مستقل بذاته وأن وظيفته تزيينية مثله مثل اللوحات/التماثيل التي تزين المباني الكلاسيكية،فإن هذا يجرد الوصف من وظيفته الفنية،وبنكر التحامه بالعمل الأدبي لكن الروائيين الواقعيين جعلوا للوصف وظيفة بالغة الأهمية هي الكشف عن الحياة النفسية للشخصية،والإشارة إلى طبعها و مزاجها،والإيهام بواقية الأحداث،وبالمقابل يرى الروائيون الجدد أن النص السردي يخلق عبر الكلمات أمكنة خيالية ومقومات خاصة وأبعد متميزة ذلك أن الوصف تصوير ألسني معبر وفني بحيث يتجاوز الصور المرئية،حيث ينقل عالم الواقع إلى عالم الرواية،فيصبح المطلوب ليس وصف الواقع بل خلق واقع شبيه بهذا الواقع.

يقوم "أسلوب الوصف" على مبدأي:الاستقصاء/الانتقاء/وهما متناقضان ،فالاستقصاء"يصف كل ما تقع عليه عينا الراوي،ولا يدع تفصيلا إلا ذكره،وبخلاف –الانتقاء-الذي يكتفي ببعض المشاهد الدالة تاركا للمتلقي للإيحاء.فالمبدعون في وصفهم:للمدن/الأحياء/البيوت..إنما هم يعكسون مختلف القيم الاجتماعية التي يريد الراوي الإشارة إليها،فيعبرون بهذا الوصف عن الطبيعة الاجتماعية التي ينتمي إليها شخصيات الرواية ذلك أ ن البيت-كفضاء مكاني- يسهم في حالة الإنسان وتشكيل طباعه وعيه،فغذا كان البيت يعني الأمن والاستقرار و الراحة والحماية،فإنه يختلف عن المنزل والدار والكوخ...إذ لكل من هذه التصميمات دلالاتها الخاصة بها،وإن كانت تطلق جميعها على فضاء مكاني واحد فكذلك تختلف البيوت الموجودة في الريف عن التي في المدينة،حيث يعيش الأفراد في المدن ضمن صناديق مؤثثة بعضها فوق بعض بخلاف الريف الذي تتناثر فيه البيوت ضمن مساحات واسعة،هذا بالإضافة إلى أن قطع الأثاث تحمل هي الأخرى دلالات وإيحاءات في الأعمال الروائية،فكل قطعة أثاث في البيت لها ارتباط سوسيونفسي/تاريخي/ثقافي/حضاري.....بشخصيات الرواية،وهي تدل على سمة من سمات شخصية الفرد فالخزانة التي بها كتب/مجلدات ذات دلالة على التي بها بلوريات/أطر/قطع نحاسية...فهي كذلك حاملة لدلالة لذلك يبقى الأثاث حاملا لمختلف الإيحاءات والتعبيرات التي لها علاقة بالشخصيات ضمن العمل الروائي،و"الأثاث" لا يدل على شخصية صاحبه فحسب،بل وعلى طبقته الاجتماعية أيضا فالأثاث الأرستقراطي معروف في موضة المقاعد والكراسي والخزائن وعن طريق الأثاث يمكن وضع تأريخ للأسرة المالكة له وهكذا يبدو أ ن للأشياء تاريخا كما للأشخاص والطبقات،وإذا كانت الأشياء في الرواية التقليدية هي دالات على مدلولات،فالكرسي الخاوي يدل على الغياب والانتظار،واليد تربت على الكتف هي علامة "استلطاف"فإن هذه الأشياء في الرواية الجديدة تفقد دلالاتها وتستغني عن أسرارها وتتخلى عن جوانيتها التي كانوا يسمونها-القلي الرومنسي-للأشياء.

وهكذا الم في العمال الروائية،فإذا شاء الروائي أن يصف منزلا يرغب في أن يضع فيه أشخاص يتلون بالذكاء والذوق كان عليه أن يجعله نموذجيا،فيصور منزل أحد أصدقائه مثلا:قطعة قطعة،ويغير في ترتيب الأثاث بحيث يبدو المنزل وكأنه أحد القصور.

**3/أنواع الأفضية المكانية:**

لقد أشار الكثير من النقاد أنه يمكن تقسيم الفضاء إلى خمسة أنواع هي:

**-1/الفضاء الروائي:**وهو فضاء لفظي يختلف عن الأماكن المدركة بالسمع/البصر،وتشكله الكلمات فتعبر بدورها عن مختلف المشاعر والتصورات المكانية التي تستطيع اللغة التعبير عنها،ولما كانت الألفاظ قاصرة عن تشييد فضاءاتها الخاصة بسبب طابعها الحدود،فإن ذلك يدعو الراوي إلى تقوية سرده بوضع طائفة من الإشارات وعلامات الوقف داخل النص المطبوع،وهكذا فإن-الفضاء الروائي- يتكون من التقاء فضاء الألفاظ بفضاء الرموز الطباعية،وهو المظهر التخييلي/الحكائي/السردي،كما يرتبط بزمن القصة وبالحدث الروائي وبالشخصيات السردية،فالمكان لا يتشكل إلا باختراق الأبطال له،وليس هناك أي مكان محدد مسبقا،وإنما تتشكل الأمكنة من خلال الأحداث التي يقوم بها الأبطال،وهذا الارتباط بين الفضاء الروائي والحدث هو الذي يعطي الرواية تماسكها،يقول-فيليب هامون-إن البنية الموصوفة تؤثر على الشخصية وتحفزها على القيام بالأحداث".

**-2/الفضاء النصي:**لقد رفعت الدراسات النقدية الحديثة والمعاصرة الالتباس،الذي كان واقعا بين الفضاء الروائي والفضاء النصي،باعتبار الفضاء الروائي مكونا سرديا لا يوجد إلا من خلال اللغة،فإنه يصبح موضوعا للفكر الذي يبدعه الروائي،متضمنا المشاعر المكانية التي تعبر عن الكلمات،ولما كانت الكلمات تتداخل معانيها إذا لم توضع لها علامات ترقيم،فإن الروائي حرص على وضع هذه العلامات،وهكذا نشأ-الفضاء النصي-الذي يمثل الحيز الذي تشغله الكتابة ذاتها،باعتبارها أحرفا طباعية على مساحة الورق،وتشمل ذلك:تصميم/وضع/تنظيم/تشكيل كل من :الغلاف/المقدمة/الفصول/العناوين وتغييرات حروف الطباعة،فكل هذه المظاهر داخلة في تشكيل المظهر الخارجي للرواية،ولها دلالة جمالية سردية وقيمية:فوضع الاسم في أعلى الصفحة يعطي انطباعا يختلف عنه إذا وضع تحت العنوان،وهكذا فإن-الفضاء النصي- هو المكان الذي تتحرك فيه عين القاريء،إنه فضاء الكتابة الطباعي،ولا علاقة له بالمكان الذي يتحرك فيه الأبطال.

**-3/الفضاء الدلالي:**وقد أشار إليه-جيرارجنيت-في كتابه-صور2-.1971من منطلق أ ن لغة الأدب لا تقوم بوظيفتها بطريقة بسيطة،إذ ليس للتعبير الأدبي معنى واحد،بل تتضاعف دلالاته وتتناسل أكثر فأكثر،إذ يمكن للكلمة الواحدة أن تحمل أكثر من دلالة واحدة،فهناك المعنى الحقيقي والمعنى المجازي .......ومن هنا فإن الفضاء الدلالي يتأسس محوره الدلالي بين مدلولين:حقيقي ومجازي،وهذا من شأنه إلغاء الوجود الوحيد للامتداد الخطي للغة الخطاب"ولكن الفضاء الدلالي إذا كانت له علاقة وطيدة بالشعر فإنه ليس مبحثا ضروريا في السرد.

**-4/الفضاء كرؤية/منظور:**وهو النوع الذي أشارت إليه-جوليا كريستيفا-من منطلق أنه الفضاء المراقب بواسطة وجهة نظر المبدع،والتي قد تهيمن على مجموع الخطاب ،بحيث يكون المبدع متموقعا في نقطة واحدة"وتشبه-كريستيفا-الرواية بالواجهة المسرحية،فالعالم الروائي بما فيه من أبطال وأشياء يبدو مشدودا إلى محركات خفية يديرها الكاتب وفق خطة مرسومة ،وهذا ما يشبه ما يسمى:بالمنظر الروائي-أو زاوية رؤية السارد.

**-5/الفضاء الجغرافي**:وهو مجموع الأفضية الجغرافية التي تتحرك فيها الشخصيات الروائية،والكثير من النصوص السردية الحديثة التي تزخر بهذا النع من الفضاءات الجغرافية كما تتوزع هي الأخرى إلى فئات ذات تنوع كبير من حيث الوظيفة والدلالة والتداول،وهي:

**-أماكن الانتقال العامة**:المدن/القرى/الجبال/السهول/الحياء/الشوارع وغيرها.

**-أماكن الإقامة الاختيارية**:فضاء البيت/المقهى/الحديقة وغيرها.

**-أماكن الإقامة الإجبارية:**فضاء السجن/الزنزانة/وغيرهما.